

رحلات الاستطلاع البريطانية في العراق و الخليج العربي 1871-1914م

د. أيمن صلاط*

داليا شحود**

(تاريخ الإيداع 10 / 2 / 2021. قبل للنشر في 1 / 7 / 2021)

□ ملخص □

تناول البحث تنقلات الرّحالة البريطانيين و تجولهم بين القبائل العربيّة بدون أيّ عقبات، نظراً لضعف الدولة العثمانية الحاكمة وانهيائها. وإنّ محور تلك الرحلات كان قائماً على جمع المعلومات بدقّة و التعرّف على أحوال البلاد وكشف نقاط ضعفها، لسهولة احتلالها فيما بعد و هذا ما حدث عند احتلال بريطانيا للعراق عام 1914م. لقد ترك كلّ رّحالة من بعده مذكرات، خرائط و مقالات جغرافية و ديمغرافية، جُمعت لدى حكومة الهند البريطانية، والتي منعت نشرها و ذلك لاستخدامها في التخطيط الحربي. و هكذا يتبيّن أنّ هؤلاء الرّحالة كانوا جواسيس، بذلوا جهوداً كبيرة لخدمة حكومتهم و التي بدورها اعتمدت عليهم. و قد استطاع هؤلاء أن يتحمّلوا قساوة البيئة الصحراوية من جهة والتعاطي مع البدو من جهة أخرى. مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة فهم الدين الإسلامي و إجادة اللّغة العربيّة. و قد برز دور النساء أيضاً، إذ قامت المرأة البريطانية بأعمال جاسوسية لا تقل أهميّة عن الرجل الشجاع لاسيما قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914-1918م.

الكلمات المفتاحية: استطلاع، جواسيس، استعمار، إسلام، مذكرات، مهنة.

* أستاذ مساعد-قسم التاريخ- كلية الآداب و العلوم الإنسانية- جامعة تشرين - اللاذقية-سورية.

** طالبة دراسات عليا (ماجستير) - قسم التاريخ- كلية الآداب و العلوم الإنسانية-جامعة تشرين-اللاذقية- سورية.

British reconnaissance trips in Iraq and the Persian Gulf 1871- 1914 AD.

Dr. Aiman Sallat^{*}
Dalia Shahhoud^{}**

(Received 10 / 2 / 2021. Accepted 1 / 7 / 2021)

□ ABSTRACT □

The research studies the movement of British travelers and their wanderings between Arab tribes without any obstacles. Due to the weakness and collapse of the ruling Ottoman Empire. And the focus of those trips was based on accurate information gathering, getting to know the conditions of the country and revealing its weaknesses, because of the ease of its occupation later, and this is what happened when Britain occupied Iraq in 1914 AD. Every traveler left memoir, maps, and geographic and demographic articles collected with the government of British India, which prevented their publication for use in war planning. And so it turns out that these travelers were spies. They made great efforts to serve their government, which in turn depended on them. And they were able to endure the harsh desert environment on the one hand, and deal with the Bedouins on the other hand. Taking into account the necessity of understanding the Islamic religion and mastering the Arabic language. The role of women also emerged on scouting trips. British woman carried out espionage acts no less important than the brave man. Especially prior to the outbreak of the First World War 1914-1918 AD.

Key words: reconnaissance, spies, colonialism, Islam, memoir, profession.

^{*}Professor- Department of History –collage of Arts and Humanities –Tishreen University-Lattakia-Syria.

^{**}Postgraduate (Master)student- Modern and contemporary specialization- Department of History-collage of Arts and Humanities- Tishreen University-Lattakia-Syria.

مقدمة

عدَّ المؤرخون القرن التاسع عشر قرن التوسع الاستعماري للدول الكبرى، و لا شك أن بريطانيا أسست نفوذاً قوياً في الخليج العربي قبل القرن المذكور من خلال (شركة الهند الشرقية) التي تأسست عام 1600م، و بوضوح كانت الكفة لصالح بريطانيا دون غيرها من الدول في الميدان الاستعماري. تعرّض الخليج العربي لمزاحمات دولية شديدة، و كان من بينها الحملة العسكرية التي أرسلتها الدولة العثمانية أملاً في أن يكون لها نفوذ في الخليج واستطاعت احتلال الإحساء عام 1871م، بالإضافة للصراعات الداخلية في شبه الجزيرة العربية.

امتلكت رحلات الاستطلاع البريطانية في تلك الفترة معلومات مسبقة عن العراق و الخليج العربي، و عملت على زيادتها بالتفاصيل الجغرافية و الديمغرافية من خلال العيش هناك و كتابة الملاحظات و المذكرات. و قد تأثرت بالأحداث السياسية و تطوّرت أهدافها التي أخذت أشكالاً بعيدة المدى، جعلتها تختلف عن الرحلات التي قامت قبل القرن التاسع عشر، إذ كان الدافع الأول المغامرة و دراسة تاريخ تلك المنطقة في أغلب الأحيان. كانت الحكومة البريطانية بحاجة إلى جواسيس يُمهّدون لعمليات تقسيم الدولة العثمانية، و هذا ما فعله الرّحالة المخلصين لبلادهم. و يبدو أن نتائجهم العلمي قد حقق نتائج مذهلة عندما وُضعت كتبهم بأيدي السياسيين.

بيّنت رحلات الاستطلاع البريطانية أهمية العراق و استثماره خاصة في مجال البناء و المواصلات، أمّا الخليج العربي فمثّل المنطقة الحيوية التي تصل إلى الهند. تحمّل الرّحالة البريطاني مشقة السفر و العيش في بيئة صحراوية قاسية، و قد أظهر البحث بأنه ذلك الرجل المتعالي و المتفاخر بأصله، إذ لطالما افتتح البريطانيون بأنهم "أفضل أمة لنشر الحضارة". لكن بنفس الوقت كان لدى الرّحالة البريطاني قدرة كبيرة على التأقلم مع العرب و فهم عاداتهم و تقاليدهم.

إشكالية البحث:

- يطرح البحث عدّة تساؤلات، و يحاول الإجابة عن أهمّها:
- ما التغيرات التي طرأت على رحلات الاستطلاع البريطانية في العصر الحديث ؟ و هل كانت ذو نتائج فعّالة للتحكّم بالواقع السياسي للعراق و الخليج العربي ؟
 - لماذا ينبغي على الرّحالة البريطاني أن يتعمّق بالدين الإسلامي على الصعيد الشخصي ؟

أهمية البحث وأهدافه

تكمّن أهمية البحث في توضيح حركة رحلات الاستطلاع البريطانية و نشاطها الذي خرج عن المهام الأساسية للرحلات كالاستكشاف و حُب المغامرة، و يعود سبب الاختيار إلى قلّة الدراسات التي تفسر الغرض الأساسي من هذه الرحلات، في فترة زمنية هامة (1871-1914)، تكشف فيما بعد نجاح العمليات العسكرية البريطانية التي جرت عند اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914-1918) في العراق و الخليج العربي. بالإضافة لتسليط الضوء على بعض الشخصيات البريطانية التي تُعدّ أقل شهرة من غيرها في مجال الاستطلاع.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة المخططات التي سار عليها هؤلاء الرّحالة، و ما قدّموه من فوائد و نتاج علمي (كتب، خرائط) خدم حكومتهم سياسياً، فكانوا بمثابة جواسيس محترفين. و الوصول إلى بعض المعلومات التي تعرض الحياة اليومية

للرحالة البريطاني أثناء تعامله مع الشيوخ العرب، و كيفية التأقلم مع العادات و التقاليد العربية، إذ يكون أمام خيارين إما تقبلها أو رفضها و العودة إلى بلاده.

منهجية البحث:

سيعتمد البحث على المنهج الاستقرائي- التحليلي، الذي يقوم على جمع المصادر أولاً و التي دعمت جوانب مهمة من البحث، بالإضافة للمراجع العربية و الأجنبية، و القيام بتحليلها و تفسيرها لاستخلاص النتائج و الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

النتائج والمناقشة

أولاً: أهمية العراق و الخليج العربي بنظر الأوروبيين.

توجهت الأطماع الأوروبية إلى الخليج العربي الذي يعدّ المعبر المائي المنفتح على جنوب و شرق آسيا، و مع اتصاله بجنوب العراق عبر شط العرب اعتبر الطريق الاستراتيجي الذي يوازي قناة السويس في الأهمية¹. و استطاعت بريطانيا أن تستغل خيرات الخليج العربي و ثرواته، و أن تبعد أي مزاحمة دولية هناك منذ القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين، نظراً لقربه من الهند "درة التاج البريطاني"².

اتخذت بريطانيا الخليج العربي مركزاً لها و لتحركاتها الحربية فبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914م، فكان الموقع الأمثل للوصول إلى مستعمراتها بحراً، و أصبح طريق الهند- الخليج العربي- العراق وصولاً إلى أوروبا الأنسب لطموحات بريطانيا و غاياتها الاستعمارية³.

أصبحت أطماع الدول الكبرى في اتساع مستمر و ظهرت بشكل واضح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد زاد التنافس الاستعماري فيما بينهم في المشرق العربي. لقد امتاز العراق بموقع جغرافي متميز، و كان خاضعاً للحكم العثماني حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914م. و تألف العراق من ثلاث ولايات و هي (الموصل، بغداد، البصرة)، لكن أوضاعها الإدارية و الاقتصادية كانت سيئة و تعاني من التدهور، و على أية حال لم يكن العراق في حالة ازدهار فقد تعرّض لصراعات مع إيران، و في عام 1801م دمر الوهابيون⁴ جنوبه، بالإضافة لصراعات داخلية دارت بين القبائل العربية و الكردية، و الكوارث الطبيعية كالفيضانات و انتشار الطاعون⁵.

حكم ولاية عثمانيون العراق و إنّ أغلبهم اتصفوا بالطمع و تفضيل المصالح الشخصية على أي شيء آخر، مع الأخذ بعين الاعتبار بُعد تلك الولايات عن مركز الدولة العثمانية استانبول، فلم تحظ بالكثير من الاهتمام و الرعاية، و قد

¹ القاسمي، خالد، التطور التاريخي لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2009، ص 9.

² البزاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، 1954، ص5.

³ التكريتي، سليم، المقاومة العربية في الخليج العربي، دار الرشيد، العراق، 1982، ص 11.

⁴ الوهابيون أو الحركة الوهابية: ظهرت في منتصف القرن الثامن عشر، زعيمهم محمد بن عبد الوهاب و مركزهم نجد، كانوا يحاربون بكل عنف و قسوة كل من يعارضهم في الفكر الوهابي. طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، جامعة دمشق، دمشق، ط7، 2001، ص108-109.

⁵ طربين، المرجع نفسه، 307، 312.

شكل هذا الوضع عاملاً مساعداً على استقرار المصالح الأوروبية (الفرنسية، البريطانية، الألمانية) بكل سهولة في العراق آنذاك.⁶

على الرغم من ذلك فقد جذبت موارد الدولة العثمانية أنظار الدول الأوروبية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908)م⁷. و استطاعت أن تكشف تلك الدول الثروات التي يتمتع بها العراق، خصوصاً المواد الخام كالمعادن و الفحم للوقود، و النفط الذي ظهر في أوائل القرن العشرين فيما بعد، إذ توفّر مستلزمات الصناعة الحديثة وتلبّي متطلبات الآلات و وسائل النقل، فضلاً عن الأراضي الزراعية الخصبة، و ما يوفّره العراق من أسواق للمنتجات التجارية الأجنبية.

و كثيراً ما وضعت الدول الأوروبية الخرائط و المقترحات التي تخصّ مشاريع البناء و المواصلات على طول نهري دجلة و الفرات. و لعلّ أبرز المشاريع التي دلّت على أهمية العراق كطريق تجاري مريح، يصل بين الغرب و الشرق هو مشروع سكّة حديد برلين- بغداد 1903م، و قد توقّف عن التنفيذ بسبب المنافسات الدولية الحادة التي حدثت منذ نهاية القرن التاسع عشر و استمرت بعده.⁸

أتاحا نهري دجلة و الفرات مجالات استثمارية كبيرة، و قد تمحورت المشاريع التي فكّر بها الأوروبيون و - على الأخصّ الحكومة البريطانية - حول السكك الحديدية و الرّي و بناء الجسور و زيادة المراكب النهرية البخارية والاستفادة من الملاحة. و قد هدفت تلك المشاريع الاقتصادية إلى توفير الأرباح و ترسيخ النفوذ الاستعماري بالدرجة الأولى.⁹ و قد عدّت الحكومات الأوروبية العراق بلداً غنياً، و يصلح للكثير من المشاريع الاستثمارية لكن الدولة العثمانية عاجزة و شعبها غير قادر على الاستفادة من تلك الثروات الطبيعية.¹⁰

يُعدّ العراق من المراكز الحضارية الغنية بالآثار (الآشورية، البابلية، السومرية). و قد مثّلت "الكنوز العلمية" التي يبحث عنها المهتمون بالتاريخ و التنقيب عن الآثار. و لذلك أجرى الفرنسيون و غيرهم الدراسات العلمية، و حصلوا على الآثار الموجودة في الموصل ليتم نقلها بعد ذلك إلى متحف اللوفر و عرضها كقطع ثمينة منذ القرن التاسع عشر.¹¹ لقد جمع العراق ميزات استراتيجية جعلت الدول الأوروبية تسعى للسيطرة عليه، و لعلّ هذا ما يفسّر المواجهات والتحديات التي وقعت بين الدول الكبرى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، لاسيما و أنّ الدولة العثمانية "الرجل

⁶ الأعظمي، علي، مختصر تاريخ البصرة، تحقيق: عزة رفعت، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 2001، ص 168.

⁷ السلطان عبد الحميد الثاني (1842-1918)م: جلس على العرش بعد أخيه مراد الخامس، قضى بقية حياته منفياً في سلانيك بعد خلع من قبل جمعية الاتحاد و الترقّي. السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية 1891-1908م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977، ص 11-12.

⁸ السكيف، ماري، الامتيازات الأجنبية و انعكاساتها الاقتصادية و الاجتماعية على سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010، ص 31.

⁹ لونكريك، ستيفن، العراق الحديث من سنة 1900 إلى سنة 1950، ترجمة: سليم طه التكريتي، منشورات الفجر، بغداد، 1988، ص 21.

¹⁰ Earle, E. Turkey- The Great Powers and the Baghdad railway, , The macmillan company, America, 1924, P.5.

¹¹ فوسيل، بيبير دي، الحياة في العراق منذ قرن 1814-1914م، ترجمة: أكرم فاضل، وزارة الثقافة و الإعلام، بغداد، 1968، ص 161.

المريض" كانت تعاني من الضعف و الانهيار، و هذا أدى بدوره إلى تدخل أوروبي في المشرق العربي بشكل عام والعراق و الخليج العربي بشكل خاص.¹²

نشطت التجارة البريطانية مع الشيوخ العرب و كان القنصل البريطاني المُسير للعلاقات البريطانية- الخليجية، كما عملت حكومة الهند على تقوية نفوذها سياسياً و اقتصادياً و عسكرياً.¹³

كان الميدان التجاري هو الأوسع لبسط النفوذ الاقتصادي في البداية، ثم وضع الخطط العسكرية و السياسية للحفاظ على المصالح التي حققتها بريطانيا في الخليج العربي حتى اضطرت لمواجهة السكان الأصليين و القضاء على تجارتهم، فأرادت أن يكون المجال مفتوحاً لها سواء في المحيط الهندي و شبه الجزيرة العربية و شرق أفريقيا.¹⁴

كانت تُدار الممتلكات البريطانية في الهند من قبل الحاكم العام في الهند و مجلس الوزراء في لندن (إدارة سياسية و عسكرية و مالية)، بالإضافة للاعتماد على الأسطول الملكي منذ عام 1871، و رافق تلك الخطوات جهود العلماء و الملاحين الخبراء في وضع الخرائط و القيام بعمليات المسح لمعرفة المواقع الاستراتيجية و التركز فيها كالبحرين، قطر، بوشهر، مسقط.¹⁵

حازت مشاريع المواصلات على أهمية كبيرة، إذ جرى اتفاق بين الدولة العثمانية و بريطانيا حول مد خط تلغراف يصل بغداد باستانبول بإشراف الانكليز؛ على أن تشترك الأولى بالنفقات المطلوبة لإتمام المشروع و بعد أن تمّ فعلاً أكمل الانكليز سبر التلغراف من خانقين¹⁶ Khankeen إلى البصرة و الفاو¹⁷ Faow ثم مُدّت الأسلاك تحت مياه الخليج العربي عند بوشهر وصولاً إلى الهند.¹⁸

وُفّرت خطوط التلغراف اتصالاً سريعاً و انفتاحاً واسعاً بالإضافة لإحكام السيطرة البريطانية التي كانت على استعداد لمواجهة أي نفوذ أجنبي في المنطقة يحاول التسلل اقتصادياً أو سياسياً، و بذلك دافعت بريطانيا عن نفوذها في الخليج العربي و الهند و منعت وصول الفرنسيين و الروس و كذلك الألمان فيما بعد.¹⁹

تفوّق البريطانيون في العمليات التجارية و نقل البضائع و قد استفادت بريطانيا من خيارات الهند المتدفقة لتتقدم في صناعاتها طوال القرن التاسع عشر، اشتهرت الهند بالمنتجات الوفيرة إذ لم تكن التجارة البريطانية لتستغني عنها كالأقمشة، صناديق الشاي، أنياب الأفيال، ريش النعام، العقاقير، القرفة، التوابل، الخمر، جوز الطيب.²⁰

¹² البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، مصدر سابق، ص 7-8.

¹³Fraser. D, The short cut to India- The record of a Journey along the route of the Bagdad- railway, William Blackwood and sons Edinburgh, London, 1909, P.308..

¹⁴ القاسمي، خالد، التطور التاريخي لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة، مرجع سابق، ص 36-37.

¹⁵ ويلسون، آرنولد، تاريخ الخليج، ترجمة: محمد أمين عبد الله، وزارة التراث و الثقافة، سلطنة عُمان، ط4، 2016، ص 201-202.

¹⁶ خانقين Khankeen: مدينة عراقية شمالية، تقع على الحدود الإيرانية، عُرفت منذ القدم بأهميتها كموقع يصل بين بغداد و خراسان، تُعدّ من المدن الغنية بالنفط. شامي، يحيى، موسوعة المدن العربية و الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993، ص 75.

¹⁷ الفاو Faow: تقع جنوب العراق، تعتبر مرفأً مهم على شط العرب و الخليج العربي، أهم محاصيلها التمور . شامي، يحيى، المرجع نفسه، ص78.

¹⁸ مؤنس، حسين، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، ط2، 1938، ص 391.

¹⁹ عبد الله، إيناس، تاريخ العراق الحديث 1258-1918، دار عدنان، بغداد، 2014، ص 460.

²⁰ روبينز، نك، الشركة التي غيرت العالم كيف بنت شركة الهند الشرقية الامبراطورية البريطانية و قدمت المؤسسة العابرة للقارات، ترجمة كمال المصري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2009، ص 153، 277.

على الرغم من أن بيئة الخليج العربي فيها عوامل مساعدة للملاحة و أقطارها ذات صفات تضاريسية متشابهة بالتالي الإنتاج الاقتصادي فيها متماثل أيضاً، لكن الموقع المفضل بالنسبة لبريطانيا كان مسقط بالإضافة لمضيق هرمز ؛ و السبب في ذلك هو أن الأولى تقع عند مدخل الخليج من جهة الهند و الثاني يتحكم بحركة السفن و عبورها مما يعطيها قوة سياسية و اقتصادية معاً.²¹

ثانياً: نشاط الرحالة البريطانيين في العراق و الخليج العربي و صلاتهم السياسية مع حكومتهم.

قدّم الرحالة البريطانيون إلى العراق و الخليج العربي و لديهم غايات تصبّ في صالح حكومتهم بالدرجة الأولى خاصة في مطلع القرن العشرين، و قد تغيّرت أهداف رحلات الاستطلاع في العصر الحديث و خرجت عن كونها مجرد جهود فردية أو بحثاً عن المعرفة و إشباع روح المغامرة أو المتعة كما كان سابقاً.

إنّ مناطق النفوذ البريطاني في المشرق العربي كانت قد اكتشفت و ليست بحاجة إلى التعريف عنها، بل على العكس كانت خرائط العراق و الخليج العربي آنذاك واضحة أمام بريطانيا، و قد دخلت رحلات الاستطلاع المجال السياسي و أصبح هؤلاء الرحالة عبارة عن جواسيس، هدفهم خدمة بلادهم و انتصارها في الحرب العظمى الأولى، و منافسة الدول الاستعمارية الأخرى في المنطقة.

اختلفت المكانة الاجتماعية و المهنية التي شغلها الرحالة فمنهم الطبيب، التاجر، عالم النبات و الحيوان، الرسّام، رجل دين أو مُبشّر، عالم آثار، ضابط و غير ذلك من المجالات الاقتصادية و الثقافية و العسكرية.²² و كان لابدّ للرحالة من الانخراط في المجتمع العربي و ذلك لأسباب توفّر لهم الاستقرار و ليس محبةً بالعرب و الإعجاب بحياتهم و أفكارهم.

و على ما يبدو أن الرحالة الأوائل قد وضعوا شروطاً للارتحال و العيش بين القبائل العربية لفترة من الزمن، و ذلك لتفادي أيّ عداة أو نبذ من قبل العرب، و لسهولة تقبّل وجودهم رغم الاختلاف الكبير، و أبرز تلك الشروط:

- تعلّم اللغة العربية و إتقانها و الاطّلاع على اللهجات المحكية أيضاً.
- ارتداء الزيّ العربي الكامل (العقال على الرأس، لباس طويل، عباءة، السلاح على الخصر مع الحزام).
- اتّخاذ لقب أو اسم عربي إسلامي معروف، على سبيل المثال محمد، عبد الله. و التعرّف على العادات و التقاليد التي تتمسك بها القبائل العربية.
- قراءة الكتب التي تخصّ تاريخ المشرق العربي و الاستفادة منها.
- القيام بالشعائر الإسلامية، حتّى إنّ قسماً من الرحالة اعتنق الإسلام ديناً له.²³

تصرّف الرحالة البريطانيون بحريّة في العراق و الخليج العربي قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، و كأنّ كل شيء مباح أمامهم و لاسيما أنّهم تلقوا دعماً كبيراً من حكوماتهم، و من المؤسسات الثقافية أيضاً التي تُعنى بكتب الرحالة و إنجازاتهم.²⁴

²¹ طعمة، هادي، الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية و البريطانية خاصة، مديرية الإعلام العامة، بغداد، 1971، ص 45.

²² غازي، علي، بدو العراق و الجزيرة العربية بعيون الرحالة، دار الرافدين، لبنان، 2016، ص 41-42.

²³ غازي، المرجع نفسه، ص 43.

²⁴ غازي، المرجع نفسه، ص 46.

و قد غدّى هذا التشجيع شعور الرحالة بالثقة و الشجاعة على الرغم من إحساس البعد و الغربة عن وطنهم بريطانيا، ومعاناتهم من صعوبة التأقلم مع المجتمع العربي و صعوبة التعامل مع المزاج البدوي القاسي. لكن الملاحظ أن مشاعر الاستعلاء و البطولية قد سادت أكثر، لأنّ البريطاني المُستعمر لطالما اعتقد أنّه صاحب الحضارة و ينبغي عليه قيادة الأمم المتخلفة بنظره.²⁵

و هذا ما جسده أرنولد ويلسون ²⁶ Arnold Wilson الذي تحدّث في كتابه (تاريخ الخليج) عن فضل بريطانيا دون غيرها من الدول في نشر الحضارة، و منع تجارة الأسلحة في سبيل الحفاظ على الأمن و الاستقرار، بالإضافة إلى رفع مستوى المعيشة للسكان، و هكذا حرص على تقديم الصورة الّلامعة لرجال بريطانيا.²⁷

تعرّضت منطقة جنوب العراق مع ساحل الخليج العربي إلى صراعات دولية شديدة في عام 1871م، فقد تنبّهت الدولة العثمانية آنذاك إلى أهمية الأسطول البحري و قدرته على نشر نفوذ دولي عظيم يحقق لها أهدافاً سياسية واسعة.²⁸ و هذا أدّى بدوره إلى زيادة التحركات البريطانية بعد السيطرة العثمانية على الإحساء²⁹ في نفس العام. و أرسلت حكومة الهند سراً بحرياً لدعم المقيم البريطاني في الخليج العربي و القيام بدوريات مراقبة.³⁰

في تلك الأثناء كان سمويل باريت مايلز ³¹ Samuel Barrett Miles قد جاء إلى مسقط ليشغل منصب المعتمد السياسي هناك. و كان من أبرز الرجال البريطانيين الذين تحملوا قسوة المناخ و البيئة الجافة و الحارة في عُمان، و مارس عمله كرجل سياسي و رحالة بارع في نفس الوقت، إذ لم تمنعه العقبات الجغرافية من التوغّل داخل عُمان و استكشافها بشكل دقيق، و تسجيل معلوماته عنها و من ثمّ إرسالها على شكل تقارير إلى حكومة الهند، كي تتخذ الاجراءات الصحيحة التي تتناسب مع طبيعة عُمان، و كيفية الحكم فيها تماشياً مع الأحداث السياسية في المنطقة.

²⁵ قباني، رنا، أساطير أوروبا عن الشرق - لفقّ تُسد، ترجمة: صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط3، 1993، ص 137-138.
²⁶ أرنولد ويلسون (1884-1940): Arnold Wilson: تلقى تعليمه في انكلترا في كلية كليفتون العسكرية و بدأ حياته كضابط في الجيش البريطاني في الهند. في عام 1915 عين ويلسون مساعداً ثم نائبا للسير برسي كوكس الذي أعجب بمهارته في الأمور السياسية و سرعان ما تمّ تعيينه كحاكم مدني في العراق عام 1918 على الرغم من صغر سنّه، كان يعتقد أنّ "الشعب العراقي غير قادر على حكم نفسه". من مؤلفاته: (Letters and diary of a young political officer 1907-1914).

WWW. Wikipedia. Org/wiki / أرنولد-ويلسون، آخر تعديل بتاريخ 11 كانون الأول 2019، التوقيت 22:27.

²⁷ ويلسون، تاريخ الخليج، مصدر سابق، ص 212-213.

²⁸ ساسون، عزرا، مدحت باشا و جمعية الاتحاد و الترقّي العثمانية، مطبعة جرجي غرزوي، الاسكندرية، 1910، ص 101.
²⁹ الإحساء: تقع شرق نجد، كانت تعتبر إقليماً متّحداً يمتدّ من البصرة في الشمال إلى عمان في الجنوب، تظهر أهميتها الاستراتيجية في كونها النافذة البحرية لشرقي شبه الجزيرة العربية، يعتمد السكان في معيشتهم على الثروة الزراعية و تربية الماشية و صيد اللؤلؤ. نخلة، محمد، تاريخ الإحساء السياسي 1818-1913م، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1974، ص 2.

³⁰ Onley. J, The Arabian Frontier of the British Raj- merchants, rulers, and the British in the nineteenth century Gulf, oxford university press, New York, 2007, P.46.

³¹ سمويل باريت مايلز (1838-1914): Samuel Barrett Miles: كان ضابطاً في الجيش البريطاني، خدم في الهند بدايةً ثم انتقل إلى مسقط. أصيب بالعمى في السنوات الأخيرة من حياته، و قامت زوجته بنشر كتبه تكريماً له.

WWW. Wikipedia. Org/wiki / سمويل-باريت-مايلز، آخر تعديل بتاريخ 28 كانون الثاني 2020، التوقيت 18:53.

رأى مايلز أنَّ رحلته الاستكشافية في عُمان بمثابة تجربة غنيّة، و في عام 1875 استطاع الوصول إلى ظفار³² Zefar و التعرف على القمم الجبلية كالجبل الأخضر³³ Al Jabal Al-akhdar و المرور بواحة البريمي³⁴ Al-Brimi و ساحل الباطنة³⁵ Al-Batena.

تبين أنَّ مايلز قد تمكّن من ربط مهنته السياسية مع رحلاته الاستطلاعية في الخليج العربي، و قد استفادت حكومة الهند من معلوماته و ملاحظاته تمهيداً لتنفيذ خططها الاستعمارية التي توضحّت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.³⁶ ابتعدت رحلات الاستطلاع كل البعد عن تكريس أهدافها للمجالات العلمية و الثقافية في مطلع القرن العشرين، وأصبحت تنصبّ في المجالات العسكرية، بل إنّ أكثر ما ينتجه الرحالة من كتب و مقالات و خرائط تقع بين أيدي الضباط.

زار جون غوردون لوريمر John Gordon Lorimer³⁷ العراق و قد بذل جهداً كبيراً لدراسته مستغرقاً عدّة سنوات ليتحصّ و يرى و يكتب 1904-1905م. و لقد وضع المسودّات و تلقّى الدعم من بعض الأشخاص الذين سبقوه إلى العراق، و في شهر نيسان عام 1907 كان بحوزته 300 صفحة، تحوي استطلاعات جديدة و وافية بعد نضج عمليات المسح عند نهريّ دجلة و الفرات.

و قد ذكر الحدود، التضاريس مع تشعّب في الحديث عن النباتات و الحيوانات، المناخ، المعادن. إحصائيات السكان وقسمهم إلى حضر و أرياف و تناول الأحوال الصحية، الأسلحة، الدين، اللغة. و لم يهمل الجانب الاقتصادي كالزراعة و التجارة (الداخلية و الخارجية، عن طريق البرّ و البحر)، الموازين، المقاييس، العملة، الصناعة. المواصلات البرية

³² ظفار Zefar: تقع جنوب غربي سلطنة عمان، تعرف بأرض اللبان و البخور منذ القدم. تفتّح على المحيط الهندي و تبرز أهميتها كمركز للمواصلات التي تعبر جنوب شبه الجزيرة العربية و الساحل الشرقي لأفريقيا.

WWW. Wikipedia. Org/wiki/ /ظفار-محافظة، آخر تعديل بتاريخ 15 كانون الأول 2020، التوقيت 07:05.

³³ الجبل الأخضر Al Jabal Al-akhdar: يقع في القسم الشرقي من عمان، و يعدّ من أعلى الجبال إذ يبلغ ارتفاعه عشرة آلاف قدم، يشكّل حاجزاً حصيناً و ثروة طبيعية غنيّة بالمحاصيل الزراعية المتنوعة. WWW. Wikipedia. Org/wiki/خاص:تاريخ/الجبل-الأخضر-عمان، آخر تعديل بتاريخ 17 كانون الأول 2020، التوقيت 16:14.

³⁴ البريمي Al-Brimi: تقع أقصى شمال سلطنة عمان، تبلغ مساحتها 7000 كيلومتر مربع، تعرّضت المنطقة لصراعات عربية داخلية عبر تاريخها. WWW. Wikipedia. Org/wiki/خاص: تاريخ/البريمي-محافظة، آخر تعديل بتاريخ 12 كانون الثاني 2021، التوقيت 02:03.

³⁵ ساحل الباطنة Al-Batena: يقع شمال شرق عُمان و ينتهي عند مسقط. تتميز المنطقة بغنى آثارها التاريخية كقلعة صهارو قلعة الرستاق، و تأتي الصناعات التقليدية في مقدّمة المهن التي يعمل بها السكّان (صناعة الخناجر، السيوف، الفخار، الجلد).

WWW. Wikipedia. Org/wiki/منطقة-الباطنة، آخر تعديل بتاريخ 23 أيلول 2020، التوقيت 09:02.

³⁶ مايلز، س، الخليج بلدانه و قبائله، ترجمة: محمد أمين عبد الله، وزارة التراث و الثقافة، سلطنة عمان، 2، 2016، ص 11-12-13.

³⁷ جون غوردون لوريمر John Gordon Lorimer (1870-1914): هو موظف بريطاني في حكومة الهند، في عام 1891 تولّى منصب المساعد الأول للمندوب السامي البريطاني في ولاية البنجاب الهندية و في عام 1909 ترقّى في عمله ليصبح المندوب السامي للتاج البريطاني، ثمّ تولّى منصب القنصل العام في بغداد 1911، من مؤلفاته كتاب القانون العرفي و المدني لدى مجتمعات الشعب الباكستاني. تزوّج من السيدة ماريان أغنيس، توفي في مدينة بوشهر الفارسية.

WWW. Wikipedia. Org/wiki/جون-غوردون-لوريمر، آخر تعديل بتاريخ 5 أيلول 2019، التوقيت 12:03.

بما فيها (اسم المكان، المسافة المقطوعة من الطريق و الاتجاه من آخر نقطة، الجسور، القوارب، مكاتب البريد، ملاحظات عن الطريق) و غير ذلك من التفاصيل.³⁸

لم يتوقف لوريمر عند العراق بل تابع أبحاثه و وضع مقالاته عن الخليج العربي مُفصلاً و مستفيضاً بمعلوماته الجغرافية و الديمغرافية. و قد أدركت الحكومة البريطانية قيمة تلك المعلومات و عدتها في غاية الأهمية، لذلك منعت نشر كل ما يتعلّق برحلات الاستطلاع البريطانية حتى عام 1914م، و هذا ما يدلّ على استخدام النتاج العلمي في وضع الخطط الحربية و الأساليب الإدارية و الاندماج مع سكّان العراق و الخليج العربي بشكل يضمن لها السيطرة و النفوذ.³⁹

لم تكن النساء أقل نشاطاً من الرجال في ميدان الرحلات الاستطلاعية، بل كان لهنّ دوراً مماثلاً للرحالة المغامرين. و إنّ المس جروتريد بيل⁴⁰ Miss Gertrude Bell قد أثبتت ذلك. درست اللغة العربية في البداية ثم انطلقت إلى المشرق العربي و قد أعجبتها البيئة العربية فغالبا ما كانت تنتقل على صهوة الجواد أو الإبل. و في عام 1909م قامت برحلة استكشافية في العراق استطاعت أن تتجزّ مسحاً شبه كامل من الشمال إلى الجنوب.

و التقت بالسير برسي كوكس⁴¹ Percy Cox في بغداد، و منذ ذلك اللقاء بدأ عملها يتوسّع لتجمع المعلومات اللازمة و تقابل شيوخ القبائل و ترسم الأماكن التي تزورها. و في عام 1914م أصبحت جاسوسة تعتمد عليها الاستخبارات البريطانية و تستطيع تكليفها بأكثر من مهمة.⁴²

و على أيّة حال كان العراق آنذاك متدهوراً من الناحية الإدارية و يعمّه الفساد و الرشوة، فلم يكن هناك نظام صارم يفتش أو حتّى يلاحق هؤلاء الرحالة.⁴³ و يذكر السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908) في مذكراته أنّ عهده كان مليئاً بالتجسس و المؤامرات و الكذب.⁴⁴ لقيت المس بيل دعماً من وزارة الحرب البريطانية، و قضت فترة صباها في العراق و استخدمت جمالها في التفاوض مع بعض الزعماء العرب، كانت مواصفاتها جميلة، شقراء، فارعة الطول. عملت المس بيل على إيجاد التفقة بين السنّة و الشيعة⁴⁵، و كانت تبذل جهداً لإقناع العراقيين بالحكم البريطاني، كونهم غير قادرين على الحكم بأنفسهم.

³⁸ لوريمر، ج، دليل الخليج- القسم الجغرافي، ج3، مطابع علي بن علي، الدوحة، 1908، ص 951-952.

³⁹ الحمداني، طارق، البحرين في كتابات الرحالة الأوروبيين 1507-1914، دار الوراق للنشر، بغداد، 2010، ص 12-13.

⁴⁰ المس جروتريد بيل (1868-1926) Miss Gertrude Bell : عالمة آثار بريطانية جاءت إلى العراق عام 1914م و قضت حياتها فيه، تعدّت حدود عمل المستشرق إذ أصبحت أكبر مساعد و مستشار للسير برسي كوكس و أنيطت بها أعمال استخبارية تخصّ القبائل العربية، لها دور كبير في تنظيم الشؤون السياسية و الإدارية للعراق. دُفنت في بغداد.

WWW. Wikipedia. Org/wiki/غيرتريد-بيل، آخر تعديل بتاريخ 18 نيسان 2020، التوقيت 15:15.

⁴¹ برسي كوكس (1864-1937) Percy Cox: سياسي بريطاني ساهم في رسم السياسة البريطانية في المشرق العربي بعد انهيار الدولة العثمانية، حيث شارك قوات الثورة العربية الكبرى في محاربة العثمانيين. شغل منصب المقيم السياسي في الخليج العربي و كان على علاقة مع شيوخ دول الخليج و تربطه ببعض القبائل العربية علاقات ودية. WWW. Wikipedia. Org/wiki/برسي-كوكس، آخر تعديل بتاريخ 10 كانون الأول 2019، التوقيت 12:19.

⁴² المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، ترجمة: جعفر الخياط، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003، ص 14-15-16.

⁴³ البصير، محمد، تاريخ القضية العراقية، مطبعة الفلاح، بغداد، 1923، ص 8.

⁴⁴ السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية 1891-1908، مصدر سابق، ص 220.

⁴⁵ المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، مصدر سابق، ص 25.

و مع اندلاع الحرب العالمية الأولى زادت مشاغلها السياسية و لم تحظ بالكثير من أوقات الفراغ، إذ أهملت الزواج، و عاشت كامرأة بريطانية تخدم بلادها، و كتبت في مذكراتها ما يدلّ على ذلك، فتذكر: "كنتُ أفكر هذا المساء بأنّي لو لم أكن مشغولة إلى هذا الحدّ لشعرت بالوحدة كثيراً".⁴⁶ⁿ

بلغت الدولة العثمانية درجة كبيرة من الضعف و الانحطاط في القرن التاسع عشر، و كانت بريطانيا تسعى و تخطط لاقتسام ممتلكاتها كغيرها من الدول الكبرى بحجة حماية المسيحيين في الشرق. كان السلطان العثماني غير قادر على مواجهة المطامع الأجنبية، و التدخلات البريطانية في شؤون دولته. و عمّدت بريطانيا إلى حلّ مشاكل الحكومة العثمانية بما يخدم مصالحها و يزيد من ضعف العثمانيين.⁴⁷

و قد ركّز مارك سايكس⁴⁸ Mark Sykes الخبير بأمور المشرق العربي على هذه السياسة و جاءت رحلاته و تنقلاته تطبيقاً عملياً لذلك، فقد وضع لدى حكومته خرائط و كتب تبحث في أحوال المنطقة العربية و من ضمنها العراق، شارك سايكس حكومته في ضرورة السيطرة على الممتلكات العثمانية و التخلّي عن سياسة "المحافظة على الرجل المريض"، و من بين مؤلفاته التي تمحورت حول هذا الموضوع (إرث الخليفة الأخير) و يقصد به السلطان العثماني و موقفه الهش.⁴⁹

كان سايكس يستخفّ بالعثمانيين و يرى تردّي أوضاع المشرق العربي عاملاً يسهّل الاستيلاء عليه و تقسيمه فيما بعد مع فرنسا، و قد وصف الموصل - بازراء - بأنها "عش فساد عفن، تعمّ فيها الرذيلة و الاضطراب و السقم حيث البيوت مضعضة، غير صحيّة تنتن و القديمة مثل الحديثة بشعة و غير مثيرة للاهتمام تشمئز منها النفس" و الأسواق هناك "غارقة بارتفاع القدم في عفونة الأمعاء و أحشاء الذبائح و يتدفق في المجاري دَمٌ متخثّر نتن ... عبقة بالروائح المعوية".⁵⁰

ثالثاً: الرحالة هنري كاوبر و وليم ريتشارد وليمسن و اندماجهما مع العرب.

إنّ المذكرات التي خرج بها الرحالة البريطانيون قد كشفت عن مشاعرهم و انطباعاتهم عن الحياة مع القبائل العربية، كما أنّها تشكّل مادّة غنيّة لمتابعة تفاصيل الشهور و الأيام التي قضاوها في العراق و الخليج العربي مُحاولين التأقلم و التكيف مع محيط يختلف كلياً عن بلادهم بريطانيا. و ظهرت في تلك المذكرات مشاعر الإعجاب تارةً و الاشمئزاز تارةً أخرى.

⁴⁶ المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، مصدر سابق، ص 21، 39.

⁴⁷ لبيب، حسين، تاريخ السألة الشرقية، مطبعة الهلال، مصر، 1921، ص 65.

⁴⁸ مارك سايكس (1879-1919) Mark Sykes: مستشار سياسي و عسكري و رحالة بريطاني. كان مختصاً بشؤون المشرق العربي خلال فترة الحرب العالمية الأولى و سافر في صباه إلى الهند و مصر و الكاريبي و المكسيك و كندا. مات في أحد الفنادق في باريس بعمر 39 سنة بعد معاناته من مرض الانفلونزا. www.Wikipedia.Org/wiki/مارك-سايكس، آخر تعديل بتاريخ 5 أيلول 2019، التوقيت 9:26.

⁴⁹ بار، جيمس، خط في الرمال - بريطانيا و فرنسا و الصراع الذي شكّل الشرق الأوسط، ترجمة: سلافة الماغوط، دار الحكمة، لندن، 2015، ص 10.

⁵⁰ بار، جيمس، المرجع نفسه، ص 14.

– رحلة و مشاهدات هنري كاوبر Henry Cowper:

لعلّ رحلة هنري كاوبر⁵¹ Henry Cowper إلى العراق بدايةً ثم النزول إلى الخليج العربي في عام 1893م حملت معها الكثير من المشاهدات و الانفعالات الشخصية. كتب كاوبر عن بغداد بأسلوب وصفي، و تجوّل فيها في 2 نيسان من العام المذكور، لكنه وجدها غير مثيرة للاهتمام و لا توجد فيها حتى تلك الخدمات البسيطة كالطرق المعبّدة، بل إنّ شوارعها مهملة و ضيقة و تفوح منها رائحة كريهة، على عكس دار المقيمة البريطانية هناك و مكتب البريد حيث المكان رائع و مرتب⁵².

أمّا بالنسبة للتجارة في بغداد فقد رأى أنها نشطة، و تسود في الأسواق البضائع الأجنبية كالخمر و المرايا و المصابيح و غير ذلك من القطع المعدنية بينما البضائع المحلية تشتهر بالمنسوجات و التحف ذات الطابع الشرقي المميّز. وأثناء تواجد كاوبر في الأسواق تبين له أنّ التجار يعاملون الأوروبيين معاملة مختلفة عن الأهالي و ذلك برفع الأسعار، لإشباع طمع هؤلاء التجار و استغلال السياح.⁵³

لقد شاهد كاوبر أثناء إقامته في بغداد الطقوس و العادات التي يقوم بها المسلمين في شهر رمضان، لكنه لم ينسجم معهم بل بقي مراقباً فقط كرجل مسيحي بريطاني غريب. في هذا الشهر يمتنع الناس عن الطعام و الشراب – و هذا ما يُعرف بالصيام- كما يمتنع الرجال عن السجائر و الخمر، و عند غروب الشمس تزدهم المقاهي لشراء اللحوم و اللبن و الخبز و التمر، و تفتح الجوامع للصلاة، و ينتشر في الشوارع بعض المشعوذين و السحرة ليضيفوا على الأجواء نوعاً من الترفيه و التسلية.⁵⁴

بعد بغداد اتّجه كاوبر مع بعض الأصدقاء إلى الحلة⁵⁵ Al-Heelah و معهم خيولهم، و في الطريق صادفته مجموعة من الناس من الطبقة الفقيرة و ظهرت أمامه امرأة تبكي لسوء حالها، و على ما يبدو استطاع كاوبر أن يتصرّف بشكل يرضي من حوله، إذ قام بإعطاء بقشيشاً لهؤلاء الفقراء مُحاشياً ملامسة المرأة لأنه يُمنع عليها الاقتراب من أي رجل غريب أو التعاطي معه.⁵⁶

⁵¹ هنري كاوبر (1863-1941) Henry Cowper: بدأ حياته في العمل بالمجال العسكري، أكمل دراسته ثم التحق بالجيش و ترقّى في المناصب العليا في عام 1887م و 1889م، و بعد أن انتهت خدمته كضابط تفرّغ للرحلات في المشرق العربي، و في عام 1902م تزوج من ماري دونداس. في السنوات الأخيرة من حياته أعطى كل التحف الأثرية التي قام بجمعها إلى المتحف البريطاني و مات في انكلترا.

WWW. Wikipedia. Org/wiki/هنري-كاوبر، آخر تعديل بتاريخ 9 تشرين الثاني 2020، التوقيت 06:03.

⁵² كاوبر، هنري، رحلة عبر الجزيرة الفراتية إلى الخليج العربي عام 1893، ترجمة: رنا إيبش، هيئة أبو ظبي للسياحة و الثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص 175.

⁵³ كاوبر، المصدر نفسه، ص 176، 178.

⁵⁴ كاوبر، المصدر نفسه، ص 195.

⁵⁵ الحلة Al-Heelah: تقع على ضفة الفرات، بين كربلاء و النجف، كانت تسمّى قديماً "الجامعين"، تعتبر مركزاً للتجارة و الصناعة اليدوية كما تشتهر بالزراعة ففيها مساحات واسعة من بساتين النخيل. شامي، يحيى، موسوعة المدن العربية و الإسلامية، مرجع سابق، ص 74.

⁵⁶ كاوبر، رحلة عبر الجزيرة الفراتية، مصدر سابق، 224.

لاحظ كاوبر كرم رجال مدينة الحلة و حسن استضافتهم، لقد كان مستمتعاً بالإقامة هناك لكنه بقي متمسكاً بعباداته إذ لم يحبذ الأكل بأصابعه و كان يفضل شرب الخمر، و غالباً ما كان يحمل مظلته الأوروبية التي تقيه حرّ الشمس، ويتبعه مُرافق عربيّ من أصل البلاد يقوم بخدمته.⁵⁷

التقى كاوبر مع رجل عربي شيعي و رغم الصعوبة في فهم لغته كان محور الحديث عن ظلم الأتراك و قسوتهم تجاه الأهالي الذين عانوا من سياستهم زمناً طويلاً، و انفجر العدا و اشتدّ الكره بين العرب و الأتراك فعلاً،⁵⁸ عندما سيطرت جمعية الاتحاد و الترقّي⁵⁹ على السلطة عام 1908م و اتبعت سياسة التتريك،⁶⁰ فاستغلت الحكومة البريطانية الاختلاف بين القومية العربية و التركية لبسط نفوذها و جعل العرب في صفّ الحلفاء ضدّ دول الوسط (ألمانيا، النمسا، الدولة العثمانية).⁶¹

و من المشاهد التي أثارت دهشة كاوبر أثناء تنقله من الحلة إلى كربلاء⁶² Karbalaa عادة دفن الموتى المكلفة، حيث تسير القوافل القادمة من إيران و الهند إلى تلك المدينة المقدسة التي يرقد بها الحسين عليه السلام، و تُدفن الجثث تعبيراً عن الرجاء و الرغبة بدخول الجنة، و على أية حال يجب على كل سائح أجنبي التعامل بحذر تجاه تلك المقامات الشيعية المقدسة و عدم التعرّض لها، بسبب أهميتها الدينية العظيمة لدى الطائفة الشيعية.⁶³

– رحلة و مشاهدات وليم ريتشارد وليمنس William Richard Williamson:

عرّف وليم ريتشارد وليمنس⁶⁴ William Richard Williamson بكثرة أسفاره و حبّه للبحار منذ صغره، و جاء إلى المشرق العربي قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914م و استقرّ في العراق.

تدلّ تصرفاته على قدرته الكبيرة في التأقلم مع المجتمع العربي و تكوين علاقات مع شيوخ الخليج العربي بهدف سلبهم الامتيازات التجارية⁶⁵ Commercial Concessions و تحقيقاً لنواياه الاستعمارية. اتخذ وليمنس اسماً عربياً له فكان

⁵⁷ كاوبر، المصدر نفسه، ص 226، 236.

⁵⁸ الفرعون، فريق المزهري، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة 1920 و نتائجها، مطبعة النجاح، بغداد، 1952، ص 50.

⁵⁹ جمعية الاتحاد و الترقّي: بدأ أمر هذه الجمعية بين طلبة المدرسة الطبية العسكرية بشكل سرّي في استانبول عام 1889م ، و قد تأثروا بالآراء الدستورية الغربية، ركّزت الجمعية على فكرة تفوّق العنصر التركي و سيادته فب الدولة العثمانية. عامر، محمود، تاريخ الدولة العثمانية، جامعة دمشق، دمشق، 2004، ص 350.

⁶⁰ شبكه، مكي، العرب و السياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1970، ص 51.

⁶¹ سنو، عبد الرؤوف، ألمانيا و الإسلام في القرنين التاسع عشر و العشرين، الفرات للنشر، بيروت، 2007، ص 129.

⁶² كربلاء Karbalaa: تقع جنوب بغداد، تمتاز بشهرتها الدينية فيها ضريح الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، تستقبل المدينة آلاف الزوّار سنوياً ليرتفع عدد السكان فيها، يقال أنّ سبب تسميتها مأخوذ من الكرب و البلاء. شامي، يحيى، موسوعة المدن العربية و الإسلامية، مرجع سابق، ص 79.

⁶³ كاوبر، هنري، رحلة عبر الجزيرة الفراتية، مصدر سابق، ص 249.

⁶⁴ وليم ريتشارد وليمنس (1872-1958) William Richard Williamson: ولد في مدينة بريستول البريطانية، عمل بحاراً منذ صغره و برع في رياضة الملاكمة، اعتنق الإسلام و تلقى تعليمه على يد صديقه الصومالي حسن علي عام 1892م، بعد ذلك مارس مهنة التجارة مع العرب و كانت له علاقات قوية مع الكويت و أهلها. هوب، ستانتون، رحلات المغامر العربي- الحاج عبد الله وليمنس المسلماني، ترجمة: إنعام إبيش، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2011، ص 11-13.

⁶⁵ الامتيازات أو الامتياز Concession: هو ترخيص قانوني يُعطى من قبل الدولة أو هيئة عامة يمنح صاحبه حق تشغيل و استغلال مرفق عام أو جزء من الثروة القومية لمدة محدودة، مقابل إيجار سنوي أو نسبة من الأرباح. الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1985، ص 309.

يُعرف في العراق بالحاج عبد الله فاضل الزبير أو الحاج عبد الله المسلماني، و كان متعمقاً إلى حدّ ما بالفرائض الإسلامية و طبّقها مع المسلمين، فقد حجّ إلى مكة المكرمة بالإضافة إلى حفظ آيات القرآن الكريم و الاهتمام بالصلاة. ثمّ جاء مدينة الناصرية⁶⁶ Al- Nasriah و عاش مع قبيلة المنتفق⁶⁷ و انخرط معهم، تزوّج امرأة عربية و كان له ثلاثة أولاد أسماؤهم عربية أيضاً و هم عبد المطلب، محمد، و أحمد. كان يرتدي لباساً عربياً ألغى ملامحه البريطانية و سهّل عليه التجسّس في البلاد العربية.⁶⁸

اندمج وليمسن مع العرب بشكل كبير، و قد أحبّ الطعام في منطقة الإحساء التي تشتهر بغناها بالتمور، حيث كانت من المناطق المُصدّرة للتمر إلى الغرب الأوروبي، و بالنسبة للشراب فإنّ القهوة تُعدّ من الأشياء الأساسية التي لا غنى عنها في كثير من المناسبات و العادات العربية، تقدّم القهوة لاستقبال الضيوف و عند اجتماع أفراد القبيلة، و تأخذ شكلاً من أشكال التعبير عن المودة بين الأشخاص، كان وليمسن يفهم تلك التقاليد البدوية و المغزى منها، و من العبارات التي كان يسمّعها "تعال اقهوك" بمعنى تفضّل إلى شرب القهوة.⁶⁹

و من المواقف التي حدثت مع وليمسن أنّه في أحد الأيام لبّى دعوة أحد شيوخ قطر للعشاء، و جلس في الخيمة مُنتظراً يراقب أتباع الشيخ، و بعد وقت قصير رأى ثمانية من البدو يحملون الطبق الرئيس و كان خروفاً لكنّه انقلب على الرمل بسبب ارتطام أحدهم بحبل الخيمة، في تلك الأثناء تحاشى وليمسن النظر إليهم كي لا يجرّهم أو يثير مشاكل بينهم و بين شيخهم.

و قد أبدى وليمسن ليونة في التعامل مع هؤلاء و لم يُبدِ أيّ تصرّف يدلّ على تكبره، و هكذا عاش معهم كشخص ينتمي إليهم ليحقق طموحه السياسي بالسيطرة على الحكّام العرب و إخضاعهم، و برز دوره بشكل أكبر بعد عام 1914م.⁷⁰

اعتنق وليمسن الإسلام - كما ذكر سابقاً- و قد ظهر أثر الدين الإسلامي في حياته بشكل واضح، فعلى سبيل المثال لم يُعدّ يمارس الرياضة بل كان ينصرف إلى دراسة الكتب الإسلامية و التواصل مع شخصيات عربية معروفة و تكوين صداقات معهم، ليكسب بعض المعلومات و يُجيب عن الاستفسارات التي كانت تراوده.⁷¹

كما تعلّم الكلمات العربية ذات النطق الصعب بالنسبة له، و فهم معاني القرآن الكريم عن طريق ترجمته إلى الانكليزية و كان ذلك في ريعان شبابه، و قد شكّل اعتناقه الإسلام نقطة تحوّل إذ ترك الدين المسيحي بسهولة و هذا يشير إلى تعايشه الكبير مع سكّان شبه الجزيرة العربية من جهة و لأنّ المسيحية التي تلقّاها في بلاده لم تكن مترسّخة بذهنه

⁶⁶ الناصرية Al- Nasriah : مدينة كبيرة على شط الفرات، لا يفصلها عن البصرة إلى الجنوب الشرقي سوى منطقة سوق الشيوخ، تنتج الناصرية محاصيل زراعية وفيرة من الأرز و التمور و الكروم، توجد فيها آثار سومرية. شامي، يحيى، موسوعة المدن العربية والإسلامية، مرجع سابق، ص 83.

⁶⁷ قبيلة المنتفق: أقوى قبيلة عربية في العراق، تنتشر حول ضفتي الفرات الجنوبي حتى شط العرب، و تنقسم القبيلة إلى ثلاثة فروع رئيسية و هي (أجود، بني مالك، بني سعيد). لوريمر، ج، دليل الخليج، ج4، مصدر سابق، ص 1613.

⁶⁸ وليمسن، عبد الله، جولة في الخليج العربي، ترجمة: سليم طه التكريتي، دار البصري، بغداد، 1962، ص 6-7.

⁶⁹ وليمسن، المصدر نفسه، ص 56.

⁷⁰ وليمسن، جولة في الخليج، مصدر سابق، ص 36.

⁷¹ هوب، ستانتون، رحلات المغامر العربي، مصدر سابق، ص 152.

عندما كان بعمر المراهقة، و أدى ذلك إلى اكتسابه الشهرة بين العرب المسلمين و لفت انتباه السلطات البريطانية- الهندية أيضاً.⁷²

التي أبدت موقفاً متحفظاً لكنها رغم ذلك نظرت باستعلاء و بعنصرية تجاه السكان الأصليين، فقد نصحت وليمسن أثناء تواجده في الهند و عمله كشرطي بالمحافظة على طباعه "كرجل أبيض" و تجنّب الأشخاص الملونين الذين هم أدنى درجة منه. لعبت التجارة دوراً هاماً في اندماج وليمسن مع العرب من الناحية الدينية و المالية، و بعد أن ترك مهمته كشرطي انتقل إلى البصرة و تاجر بالخيول العربية و غيرها و قد كثرت رحلاته في الخليج العربي. و على أية حال بقي على اتصاله مع السلطات البريطانية- الهندية يزودها بالتحقيقات، و يقوم بالتجسس و التتكر ليجارب الألمان في العراق و الخليج العربي و يمنع الشيوخ العرب من التحالف معهم في سبيل المحافظة على المصالح البريطانية هناك.⁷³

الاستنتاجات و التوصيات

خُصّ البحث لاستنتاجات مهمة، بعد دراسة و فهم الأهداف الحقيقية لرحلات الاستطلاع البريطانية بين عامي 1871-1914م:

- 1- إنّ رحلات الاستطلاع البريطانية في العصر الحديث، كانت عبارة عن عمليات تجسس و تدخّل بشكل غير مباشر في شؤون العراق و الخليج العربي، و كان مظهره الخارجي سلمي، أيّ لم يتمّ استخدام أيّ نوع من أنواع الأسلحة.
- 2- تشكّل رحلات الاستطلاع أحد أهم الوسائل التي أغنت المتاحف الأوروبية، من خلال سرقة آثار العراق التي تعود للعصور التاريخية القديمة.
- 3- إنّ الربط بين نشاط الرحالة البريطانيين مع الفترة الزمنية التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، تكشف إحدى الأساليب السياسية للحكومة البريطانية في سبيل ترسيخ نفوذها الاستعماري.
- 4- من الملاحظ أنّه لا يمكن فصل العراق عن الخليج العربي أثناء دراسة رحلات الاستطلاع، لأنّ رجال السياسة و الرحالة على سواء اعتبروها منطقة نفوذ واحدة، و الهدف هو السيطرة عليها.
- 5- إنّ أغلب الرحالة البريطانيين بين عامي 1871-1914م، كان لهم مناصب إدارية أو على الأقلّ كان لهم صلات مع حكومتهم التي قدّرت نتائجهم العلمي، من خلال إدخاله في مجال التخطيط الحربي.
- 6- تطلّبت عملية التجسس من الرجل البريطاني التخلّي بشكل كامل عن عاداته و حياته، ليصبح واحداً من العرب البدو، يعيش و يموت في الصحارى العربية.
- 7- يعتبر دين الإسلام الركيزة التي يجب على الرحالة البريطاني استيعابها و تطبيقها.

⁷² هوب، المصدر نفسه، ص 157-158.

⁷³ هوب، المصدر نفسه، ص 162، 166.

-List of sources and references:

-List of Arabic sources:

1. Al- Aazmi, Ali, *Brief history of Basra*, edited by: Izat Rafaat, Library of religious culture, Borsaaid, 2001.
2. Al- Baseer, Mohammed, *History of the Iraq issue*, Al Falah press, Baghdad, 1923.
3. Al- Bazaz, Abdulrahman, *Iraq from occupation until independence*, institute for Arab international studies, Cairo, 1954.
4. Al- Faraon, Fariq Al Mezahir, *The bright facts of the Iraqi revolution in 1920 and its results*, success printing press, Baghdad, 1952.
5. Labib, Husain, *The Eastern question history*, Al- Helal press, Cairo, 1921.
6. Sasoan, Azra, *Midhat Pasha and Ottoman Union and promotion society*, Gerji Gharzouzi press, Alexandria, 1910.
7. Sultan Abdulhamid II, *My political memoir 1891- 1908*, Al resalah institution, Beirut, 1977.

- List of Arabized foreign sources:

1. Cowper. H, *A Journey through The Euphrates and Tigris valleys to the Arabian Gulf 1893*, Translated by Rana Ipesh, Abu Dhabi Tourism & Culture authority, United Arab Emirates, 2012.
2. Fossil. P, *Life in Iraq a century ago 1814- 1914*, Translated by Akram Fadel, Ministry of culture and media, Baghdad, 1968.
3. Hope. S, *Arabian Adventurer- The story of Haji Williamson*, Translated by Enaam Ipesh, National library, Abu Dhabi, 2011.
4. Lorimer. J, *Gulf guide- Geographical section*, VOL 3, Ali bin Ali press, Al-Douha, 1908.
5. Lorimer. J, *Gulf guide- Geographical section*, VOL 4, Ali bin Ali press, Al-Douha, 1908.
6. Lunkrick. S, *Modern Iraq from 1900 to 1950*, Translated by Salim Taha Al-Tikriti, Al Fajr publications, Baghdad, 1988.
7. Miles. S, *Gulf countries and tribes*, Translated by Mohammed Amin Abdullah, Ministry of Heritage and Culture, Sultanat of Oman, Edition 2 , 2016.
8. Miss Bell, *Iraq in the Miss Bell's messages*, Translated by Jaafar Al- Khayat, Arab house of Encyclopedias, Beirut, 2003.
9. Williamson. A, *A Journey in The Arabian Gulf*, Translated by Salim Taha Al-Tikriti, Al –Basry press, Baghdad, 1962.
10. Wilson. A, *History of the Gulf*, Translated by Mohammed Amin Abdullah, Ministry of Heritage and Culture, Sultanat of Oman, Edition 4 , 2016.

- Arabic References:

1. Abdullah, Inas, *Modern Iraq History 1258- 1918*, Dar Adnan, Baghdad, 2014.
2. Al- Hamadani, Tarek, *Bahrain in the writings of European travelers 1507- 1914*, Warraq publishing House, Baghdad, 2010.
3. Al- Qasimi, Khaled, *The historical development of the United Arab Emirates*, Arab house of Encyclopedias, Beirut, 2009.
4. Al- Skeef, Mary, *Foreign privileges and their economic and social implications on Syria in the second half of the 19th century and the beginning of the 20th century*, Syrian General Book authority, Damascus, 2010.
5. Al- Tikriti, Salim, *Arab resistance in the Arabian Gulf*, Dar Al- Rasheed, Iraq, 1982.

6. Amer, Mahmoud, *History of The Ottoman Empire*, University of Damascus, Damascus, 2004.
7. Ghazi, Ali, *Bedouins Iraq and Arabian Peninsula through the eyes of travelers*, Dar Alrafidain, Lebanon, 2016.
8. Mo'nis, Hussain, *The Islamic East in the modern era*, Hegazy press, Cairo, Edition 2, 1938.
9. Nakhlah, Mohammed, *Al- Ahsa political history 1818- 1913*, Zat Al Salasel publications, Kuwait, 1974.
10. Qabbani, Rana, *Europe's myths of Orient – Devise and Rule*, Translated by Sabah Qabbani, Dar Tlass, Damascus, Edition 3, 1993.
11. Shabeka, Makki, *Arabs and British politics in the First World War*, Dar Al- thaqafa, Beirut, 1970.
12. Snow, Abdul Raouf, *Germany and Islam in the nineteenth and twentieth centuries*, Al Furat publishing, Beirut, 2007.
13. Tarbin, Ahmad, *History of the Arabic Orient contemporary*, Damascus university, Damascus, Edition7, 2001.
14. Tohme, Hadi, *The Arab Gulf in colonial strategies especially British*, public information directorate, Baghdad, 1971.

- Foreign References:

1. Barr. J, *Streak in the sand- Britain, France, and the conflict that shaped the Middle East*, Translated by Sulafa Al Maghout, Dar Al-Hikma, London, 2015.
2. Earle. E, *Turkey- The Great powers and the Bagdad railway*, The macmillan company, America, 1924.
3. Fraser. D, *The short cut to India- The record of a Journey along the route of the Bagdad- railway*, William Blackwood and sons Edinburgh, London, 1909.
4. Onley. J, *The Arabian Frontier of the British Raj- merchants, rulers, and the British in the nineteenth century Gulf*, oxford university press, New York, 2007.
5. Robins. N, *The company that changed the world- How the East India company built the British Empire and presented the transcontinental corporation*, Translated by Kamal Al- Masry, Al Shurok international library, Cairo, 2009.

- Encyclopedias:

1. Al Kayali, Abdulwahab, *Encyclopedia of politics*, VOL 1, The Arab institute for research and publishing, Beirut, 1985.
2. Shami, Yahya, *Encyclopedia of Arab and Islamic cities*, Dar Arab thought, Beirut, 1993.

-Web Sites:

- WWW. Wikipedia. Org/wiki/.